مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

أضواء على الكتاب القديم

الأستاذ علي الصادق حسنين

تمهيد

قبل التصدي لصلب الموضوع، من المستحسن التمهيد له ببعض المعلومات العامة التي لها صلة وثيقة به.

عمل الراهب الأب كوستانتزو بيرنيا في طرابلس، منذ السنوات الأولى من الاحتلال الإيطالي، إلى أن تقرر نقله ـ سنة 1936 ـ إلى أثيوبيا حيث أسره الإنكليز ـ إبان الحرب العالمية الثانية ـ وتوفي وهو في الأسر يوم 12/ 12/ 1941.

كان من ألمع رهبان البعثة الفرنشيسكانية في بلادنا، إذ تميز بثقافته التاريخية الغزيرة وكان كاتباً ذا قلم سيال. من أشهر مؤلفاته كتاب عنوانه «طرابلس من 1510 إلى 1810» عكف على نقله إلى العربية الأخ الدكتور خليفة محمد التليسي. ومن أهم مقالاته واحدة بعنوان «الكاتدرائية القديمة بطرابلس

«نشرتها مجلة «ليبيا»، تلك الدورية المحلية التي كانت تصدر باللغة الإيطالية، في عدد أكتوبر/ نوفمبر 1937. فمن هذه المقالة تسنى لي اقتباس فحوى هذا التمهيد. يعود تأسيس أول بعثة تبشيرية في ليبيا إلى منتصف القرن السابع عشر للميلاد، وقد أسند أمرها إلى رهبان فرنسيين شاركهم فيما بعد رهبان إيطاليون ينتمون إلى جمعية الفرنشيسكانيين، علماً بأن قدوم الأخيرين إلى طرابلس لم يكن بدافع تحمسهم للتبشير بالإنجيل بين المسلمين فحسب، بل كان أيضاً لرغبتهم الشديدة في مساعدة أبناء ملتهم القابعين في دياجير «الحمامات» ـ أي السجون ـ الطرابلسية لسقوطهم في قبضة القراصنة الطرابلسيين، الذين كثيراً ما كانوا يلتحمون بأساطيل النصارى في عرض البحر، أو على سواحل شمال أفريقيا، أو صقليا أو جنوب ووسط إيطاليا. وأكثر ما كان يشغل بال هؤلاء الموفدين تعرض إخوانهم للارتداد عن ديانتهم واعتناقهم للإسلام.

كان على المبشرين الأوائل أن يسكنوا مع الأسرى بالحمام، حيث كانوا ينامون ساعات الليل، ويقضون جل ساعات النهار، في أداء واجباتهم الدينية، كتلقي الاعترافات ومناولة القربان ومساعدة المحتضرين ودفن الموتى.

وفي سنة 1812 استطاع المدبر الرسولي الأب جيرولا مودا كاستيلفيترانو أن يشتري داراً عربية قديمة، فقام بترميمها وتعديلها بحيث اتخذ منها مصلى للبعثة ومأوى لأعضائها. وعلى الرغم مما شهده هذا المصلى من عمليات توسيع لاحقة، فقد أصبح ذات يوم لا يفي بالحاجة لتزايد عدد أفراد الطائفة الكاثوليكية بالمدينة، فلم يكن بد من تعمير معبد جديد أرحب، وبيت أليق لسكنى الرهبان، وذلك بعد إضافة رقعة أرض مجاورة. وبحلول عيد الميلاد في 25/ 12/ 1703 أقيم أول قداس حضره القناصل وسائر المسيحيين عبيداً وأحراراً.

وفي غرة شهر أغسطس 1829 جرى الاحتفال بافتتاح كنيسة جديدة بالمكان نفسه، بلغت أبعادها 12 متراً طولاً و8 أمتار عرضاً و10 أمتار ارتفاعاً وأطلق عليها اسم السيدة مريم ذات الملائكة.

وبعد 60 سنة دعت الحاجة إلى توسيع هذا المعبد كرة أخرى، لا سيما

أن الطائفة الكاثوليكية قد تنامى في هذه الأثناء عددها، تبعاً لاشتداد طموح دولة إيطاليا إلى الاستيلاء على الأرض الليبية مبتدية بغزوها اقتصادياً وثقافياً، من خلال إيفادها ـ سراً وعلانية ـ التجار وأرباب شتى المهن والحرف، وفتح المدارس. وكان ذلك ـ على ما يبدو ـ بالتعاون مع جهات التبشير التي كانت تسعى ـ بدورها ـ إلى تنصير الأهلين غير أن سعيها باء بالخسران والحمد لله.

أجل، لم يمض طويل وقت حتى تم إنجاز عمارة الكنيسة التي ما برحت قائمة إلى الآن بباب البحر، والتي وضع حجر أساسها في 12/ 5/ 1891. وأحدث إلى جانب هذه الكاتدرائية كذلك دير ومكتبة وأرشيف كان من جملة محتوياته «الكتاب القديم».

إن اختفاء ما يسمى باللغة الإيطالية IL LIBRO VECCHIO قضية حيرت الباحثين الليبيين، الذين ما فتىء يداعبهم أمل العثور على وفرة من شتى الأخبار المفيدة فيه. فما هذا الكتاب يا ترى؟ إنه سجل مخطوط كانت تدون فيه ـ يوماً بيوم تقريباً ـ منذ سنة 1628 للميلاد، أخبار أهم الأحداث التي مرت بالبعثة التبشيرية الفرنشيسكانية في طرابلس، والتي ربما مرت أيضاً بالبلاد الليبية قاطبة، ولا سيما بالقطر الطرابلسي، وذلك على غرار يوميات المرحوم حسن الفقيه حسن.

والظاهر أن هذه المخطوطة قد عبثت بها الأيادي عبر الأحقاب. وإذا كتب لجلها البقاء فالفضل في ذلك عائد ـ بالدرجة الأولى ـ إلى الأب كوستانتزو بيرنيا (COSTANZO BERGNA) الذي سبق الحديث عنه، والذي استطاع ـ كما سنرى ـ أن يجمع شتات هذا السجل، وأن يستقي منه وفرة من المعلومات ألف على أساسها عملين، كان عنوان أحدهما «البعثة الفرنشيسكانية على سواحل أفريقيا الشمالية» (LA MISSIONE FRANCESCAN A SULLE COSTE DELL' AFRICA SETTENTRIONALE)، وكان عنوان الآخر «البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية في ليبيا» (LA MISSIONE FRANCESCANA IN LIBIA).

هذا وحينما استلم الأب بيرناردينو دالوكا (P. Bernardino Da Lucca)

مسؤولية إدارة شؤون البعثة التبشيرية بوصفه مدبراً رسولياً 4/ 8/ 1746 قد عمل ـ بفطنة وغرام ـ على جمع ما بقي من وثائق متعلقة بالمدبّرين الرسوليين السابقين، ومن مراسيم بابوية، ومن مراسلات متبادلة مع شتى القنصليات، ومن ملحوظات ومذكرات وعقود وغير ذلك.

ولكن هذا الراهب الباحث سرعان ما فكر في احتمال أن يعود هذا الكنز الثمين ـ في يوم من الأيام ـ عرضة للعبث والتلاشي، كما سبق أن حدث له فيما مضى.

وضمن الوثائق والأوراق المذكورة، عثر الأب بيرناردينو على المخطوطة التي كان يطلق عليها المبشرون ـ تقليدياً ـ اسم «الكتاب القديم». لكن هذا الكتاب لم يكن أبتر فحسب من حيث البيانات والمعلومات، بَلْ كان مشوباً أيضاً ببعض الثغرات التأريخية الظاهرة.

فقد اجتهد الأب بيرناردينو في سبيل إعادة إنشائه متسعيناً بالمواد التي كانت متوافرة لديه، وذلك ابتداء من عام 1650 إلى تاريخ انتهاء مهمته ـ أي في 4/ 6/ 1749. ثم اضطلع خلفاؤه من بعده بإنجاز ما تبقى من العمل.

فأعاد الأب ماريانو دا أونانو (P. Mariano Da Onano) ـ بحذق وذكاء ـ تنظيمية علماً بأن هذا الراهب قد شغل منصب المدبّر الرسولي في طرابلس من عام 1794 إلى عام 1796 وقد شكل عمله فحوى «الكتاب القديم» القائم في الوقت الراهن الذي جاء نص مقدمته على النحو التالي: «نسخة من سرد الوقائع التي مرت بالبعثة التبشيرية في طرابلس الغرب... وممّا أمكن استنتاجه من بعض الكتب التي تم العثور عليها هنا وقمت أنا، المدبر الرسول الحالي بيرناردينو دا لوكّا، بإعادة توضيبه على أفضل وجه وأحسن نظام ممكن، معيداً نسخ ما تبعثر منه فقط، بغية الربط بين أجزاء الرواية وتاركاً ـ على حاله ـ كل ما يلائم صدق وحقيقة وأصالة تاريخ الماضي» (انتهى نص المقدمة).

إن «الكتاب القديم» ـ الذي يعد حجر الأساس في إعادة إنشاء صرح تاريخ البعثة التبشيرية ـ يشتمل على 274 صفحة مخطوطة من الورق الجيد الكبير القطع، علماً بأن بعضاً منها جاءت بيضاء لم يخطّ عليها حرف، وبان

أنّ بعض ملزماتها مفقودة وربما انتزعت ـ عمداً ـ من باب الحيطة والحذر.

وبالإضافة إلى ذلك فإن صفحات كثيرة قد نخرها السوس، وصفحات أخرى كادت تكون غير مقروءة نتيجة لتعقيمها بمحلول، مادته الأساسية الخل، كان يستعمل في أوقات تفشي الطاعون في البلاد.

وهذه المخطوطة ـ التي لم تشهد في عمرها المديد فترة هدوء واستقرار ـ كان عنوانها أصلاً «مذكرات قديمة العهد للبعثة التبشيرية بطرابلس الغرب (Memorie Antiche della Missione di Tripoli di Barberia). قام الأب كوستانتزو البازيني (P. Costanzo Albasini) ـ في مطلع هذا القرن ـ بنقلها إلى مدينة البندقية واتخذ منها موضوع دراسة شيقة لم يتم نشرها بعد. ثم انتهى الأمر بهذه المخطوطة إلى روما، حيث أودعت بأرشيف دير القديس بطرس أن مونطوريو (Convento di S. Pietro in Montorio).

وفي عهد النائب الرسولي المونسنيور أنطوميلّي (ANTOMELLI) ـ 19/1913. وبأمر من المجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان (Sacra Congregazione di Propaganda Fide) أعيدت مخطوطة «الكتاب القديم» من العاصمة الإيطالية إلى طرابلس حيث تم حفظها في أرشيف السيدة مريم ذات الملائكة (S. Maria degli Angeli) وظلت مودعة هناك إلى شهر سبتمبر من عام 1970، أي العام الذي تم فيه ـ بجهد جهيد ـ تهريبها إلى إيطاليا التي بلغتها بسلام وأمان. وبعد بضع سنين لحقت بها ـ بجهد جهيد أيضاً ـ البقية الباقية من محفوظات البعثة ذاتها.

هذا ويعود إلى سبتمر 1915 فراغ الأب كوستانتزو بيرنيا من إعادة نسخة في مئتين واثنين وستين (262) صفحة بالآلة الكاتبة وهي الصفحات التي تؤلف بمجملها نص «الكتاب القديم».

وبتاريخ 29 أكتوبر من العام نفسه شرع هذا الراهب ـ بعد بحث مطول ـ على أساس ما سبق أن وجده من وثائق بأرشيف السيدة مريم، ابتداء من سنة 1784 إلى سنة 1908م مع العلم بأن السنة الأخيرة تحدد تاريخ انتقال البعثة إلى دائرة اختصاص ولاية الرهبان الأصغرين اللومبارديين، فكان من شأن مجهوده

الثاني هذا أن أسفر عن مؤلف يضم بين دفتيه مئتين وأربع (204) صفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة.

وفي السنة التالية ـ أي 1916م ـ قام الأب بيرنيا بمراجعة تاريخ البعثة التبشيرية برمته حسب التسلسل الزمني للوقائع وذلك حتى عام 1913 إذ أكمله بوثائق جديدة، بحيث ظهر إلى الوجود مجلد قوامه ثلاثمائة واثنتان وعشرون (322) صفحةً مطبوعة بالآلة الكاتبة. وإن هذا العمل الجدير بأن ينشر ويصبح في متناول القراء ـ كان بحثه «البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية على سواحل أفريقيا الشماليّة» الذي سبقت الإشارة إليه.

لقد اتخذ المؤلف من مادة هذا البحث أساساً بنى عليه ـ بصورة منهجية ـ صياغة تلك المعلومات والمعطيات التي تجسدت ـ على نحو يليق بقيمتها التاريخية ـ في الكتاب السالف ذكره أيضاً «البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية في ليبيا «الذي كان صدوره في مدينة طرابلس عام 1924. من هذا التاريخ لم تعد تكون بعثة طرابلس محل بحث ولا دراسة ولا ـ بالأحرى ـ محل نشر أو إصدار يستدعي طول النفس وسعة الصدر.

إن كتابة تاريخ ليبيا ـ من حيث الأجناس البشرية والجغرافيا والاقتصاد والسياسة، خصوصاً في حقبة الحكم الاستعماري الإيطالي ـ قد حظيت باهتمام ملحوظ فيما يتعلق بالإصدارات كمّا ونوعاً، بينما أحداث حياة البعثة التبشيرية ـ التي كانت هي الأخرى ذات بال تردت في هوة الإهمال، أو ظلت جامدة في مستوى المطبوعات التي كان يشار فيها إشارة عابرة، إلى الأخبار المتعلقة بالأمور الدينية مثل النشاط الكنسي ومساكن المبشرين بالقرى الاستيطانية وذلك إذا ما استثنينا العمل الذي يستحق التثمين والثناء والذي سهر على تأليفه الأب ج. سانيتاه (P.G. Sanità) وعنونه «شمال أفريقيا والجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان» وركز فيه على نشأة وتطور البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية في ليبيا (1668/ 1711). إنه سفر من مئتين وأربع وخمسين (254) صفحة كان صدوره بالقاهرة في عام 1963. ففي هذه الدراسة الرائعة حقاً ـ من حيث البحث عن المراجع ـ حلل المؤلف العلائق بين الكرسي الرسولي والبعثة التبشيرية

بطرابلس على أساس القدر الهائل ـ كما وصف في الصفحة 94 ـ من الوثائق التي تمكن من العثور عليها بأرشيف المجمع المقدس للدعوة إلى الإيمان بمدينة الفاتيكان، وبأرشيف كل من دير فرانشيسكو آريبا (S. Francesco a Ripa) ودير سان بييترو أينمونطوريو (San Pietro in Montorio) في روما.

وليس من شك في أن هذا العمل التاريخي كان له شأن كبير إذ أسهم في سد الثغرات والفجوات التي شابت «الكتاب القديم» بالنسبة للحقبة موضوع البحث، على أنه جاء كذلك ليكمل تاريخي البعثة اللذين عكف على تأليفهما الأب كوستانتزو بيرنيا ـ في عامي 1915/ 1916.

وفي خاتمة ثاني هذين التاريخين يقول المؤلف: «لا أرى من المناسب مواصلة سرد أخبار عهد كل من المدبرين الرسوليين الأخيرين، وذلك ليس لانعدام المعلومات التي هي ـ بالعكس ـ وفيرة بالأرشيف، وتدعمها شهادات أناس ما زالوا على قيد الحياة... إنما أترك هذه المهمة لغيري ممن يريدون إحياء الماضي من أجل أن يعجبوا بما صنع فيه من خير، وأن يتعلموا كيف يمكن تفادي الأخطاء التي قد ارتكبت، وأن يقولوا لمن سيعنى برعاية الكنيسة الكاثوليكية إنّ أفضل وسيلة لفعل الخير في هذه المنطقة تتمثل في سلوك الحياة مثالية فاضلة جاهدة مبذولة في سبيل مجد الله وخير النفوس» (انتهى قول الأب بيرنيا).

هذا ومنذ نحو سنتين قام راهب آخر يدعى فيليبيرتو صبّادين (FLLIBERTO SABBADIN) ـ أمين البعثات التبشيرية للرهبان الأصغرين اللومبارديّين ـ قام بتدبيج كتابه «الرهبان الأصغرون اللومبارديون في ليبيا: «البعثة التبشيرية في طرابلس 1908/ 1991» - (I Frati Minori Lombardi in Libia - La Missione di Tripoli 1908 - 1991) الذي يشكل الكراسة السادسة من سلسلة كراسات الولاية اللومباردية للرهبان الأصغرين، والذي تولت إصداره دار منشورات المكتبة الفرنشيسكانية (Edizioni Biblioteca Francescana) في ميلانو ـ 1991.

ينطوي هذا المؤلف على (185) صفحة قطعها (235 × 165 مليمترا)،

وجاء مقسماً إلى ثلاثة عشر فصلاً مع مقدمة وثبت للمراجع، وقائمة بأهم الأحداث حسب تسلسلها الزمني، ونخبة من الصور التذكارية ومن الوثائق، وجرد موجز للكنائس والعقارات الأخرى التابعة للبعثة التبشيرية بالقطر الطرابلسي، التي صادرتها السلطات الليبية في 21/ 7/ 1970.

وتحمل فصول الكتاب العناوين التالية:

- الانتقال (1908/ 1913).
- نيابة رسولية صعبة (1913/ 1918).
- الكاتدرائية (1919/ 1928).
- التوسع (1928/ 1935).

حقبة ما قبل الحرب (1935/ 1940).

- الحرب (1940/ 1945).
- الحقبة المرهقة لما بعد الحرب (1945/ 1947).

مدبّرية مصراتة (1947/ 1951).

- بين التردد والأمل (1951/ 1961).
- من الإحسان إلى الخوف (1961/ 1969).
- مصادرة الممتلكات (1970/ 1972).

من كسر الجمود إلى الحوار (1973/ 1977).

- فقدان الثقة جذرياً (1978/ 1991).

ومن خلال تصفح للكتاب يمكن استخلاص جملة من المعلومات المفيدة من ضمنها أن الأب كوستانتزو بيرنيا - عضو ومؤرخ البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية بطرابلس أورد في مقدمة كتابه «البعثة التبشيرية الفرنشيسكانية في ليبيا» (La Missione Francescana in Libia)، أنه كان يريد فقط تقديم إسهام بسيط في تدوين تاريخ مقبل للبعثة، وإحياء ذكرى كثير من الشخصيات الفرنشيسكانية البارزة، التي قضت حياتها في صمت بهذه البلاد فاعلة الخير

كرسل لنشر السلام دونما تمييز قومي أو ديني.

بينما ـ حسب رأي الأب صبّادين ـ جاء إسهامه بعيداً كل البعد عن البساطة على الرغم من انحصاره في الحدود التي أملتها عليه ظروف بيئية موضوعية، وذلك لأن محاولته كانت الأولى من نوعها، لتنسيق مجريات الأحداث والتقلبات التي شهدتها مرحلة تأسيس البعثة التبشيرية للرهبان الفرنشيسكانيين بطرابلس الغرب، ذلك التنسيق الذي كان قد باشره الأب أودؤاردو ميكيلي دابيرغامو (P. Odoardo Micheli Da Bergamo) في عام 1628م.

ومن الجدير بالذكر أن البحوث الأرشيفية التي أجراها الأب بيرنيا، كانت على درجة من الصعوبة، لأن محفوظات البعثة السالفة الذكر قد تعرضت مراراً للتشتيت والبعثرة، تبعاً للتقلبات السياسية الصعبة التي مرت بالبلاد الليبية، وكذلك من جراء إهمال بعض الرهبان الذين كان الأرشيف أمانة في عنقهم (ربما كان من جملتهم الراهبان الملومان المذكوران أعلاه). وزيادة على ذلك فإن بعض الوثائق المختلفة قد أهلكها الدهر، وإن وثائق أخرى قد نالت منها أساليب التعقيم البدائية التي كثيراً ما كانت تستخدم ـ كما سبق القول ـ عصرئذ في البلاد.

وعلى أية حال فقد تمكن الأب كوستانتزو بيرنيا من ترتيب وتصنيف كل ما استطاع العثور عليه من أوراق بمركز المحفوظات الوحيد، الواقع بالدير العتيق التابع لكنيسة السيدة مريم ذات الملائكة بطرابلس. ولا مناص من التنويه ـ في هذا الصدد ـ إلى أن هذا الراهب الباحث المؤرخ قد صرف اهتمامه ـ بوجه خاص ـ إلى «الكتاب القديم» الذي ينطوي على تسلسل زمني للأحداث التي شهدتها البعثة التبشيرية منذ تأسيسها، ويروي قصة المراحل الخطيرة التي مرت بها، مع العلم بأن هذا السجل الهام مودع حالياً في أرشيف أمانة إرساليات الرهبان الأصغرين اللومبارديين بمدينة ميلانو.

ومن جهة أخرى يقول الأب صبّادين: «إنما التزاماً بمقتضيات الوظيفة وبحكم ولعي الشخصي، قد بدا لي من الواجب أن ألبي دعوة الأب بيرنيا إلى

مواصلة عمله التأريخي، قبل أن يتمكن الدهر الداهم وفتور العواطف البشرية من أن يقبرا ـ وإلى الأبد ـ في طي النسيان أواخر الأحداث والتقلبات المرهقة التي انتابت هذه البعثة التبشيرية.

فمنذ سنة 1908 حين استلمها الرهبان الأصغرون اللومبارديون في عهدتهم، عاشت البعثة أحداثاً غير عادية كان لها أبلغ الأثر في مسيرتها ألا وهي بالتحديد:

ـ الحرب العالمية الأولى 1914/ 1918.

ـ إعادة احتلال إيطاليا للبلاد الليبية 1922/ 1924.

ـ خطة الاستيطان الزراعي الفاشيستي 1925/ 1939.

ـ الحرب العالمية الثانية 1940/ 1945.

ـ إعلان استقلال ليبيا 1951.

ـ مجيء القذافي إلى الحكم 1969.

ـ مصادرة جميع عقارات البعثة التبشيرية.

ـ الخط السياسي الجديد الذي أخذت تسلكه ليبيا.

فكان ـ بطبيعة الحال ـ لزاماً على البعثة اختيار نهج جديد حيث إن تاريخها قد اندرج في سياق الأحداث السياسية التي تعاقبت في البلاد منذ سنة 1908 حتى سنة 1990، والتي كانت لها صبغة محلية محددة المعالم. وإضافة إلى ما تقدم فقد استخدمت في هذا البحث وثائق أرشيف البعثة دون سواها، كما يتجلى من ثبت المراجع؛ وذلك حتى لا تعاد إلى ذاكرة التاريخ سوى الوقائع اليومية الحقيقية التي تزخر بها حياة أية بعثة تبشيرية.

وقد تعمدت أن أستبعد ـ كلياً تقريباً ـ الإسهام الذي أمكن أن يوفره التوثيق الرسمي نحو العلاقات مع الكرسي الرسولي، ومع الإدارة المركزية للرهبنة الفرنشيسكانية، أو مع هيئات ومؤسسات أخرى ـ إيقاناً مني أن مصادر الأخبار المحلية، التي حنكتها المحن، هي وحدها القادرة على أن تقدم للقارىء طراوة الحياة التبشيرية الفرنشيسكانية في بلد مستعص على المسيحية

مثل ليبيا المسلمة». انتهى كلام الأب صبّادين، وبذلك أختتم حديثي إليكم مع جزيل الشكر لحضراتكم على صبركم وحسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المراجع

BERGNA COSTANZO : LA MISSIONE FRANCESCANA IN LIBIA Stabilimento Nuove Arti Grafiche Tripoli - 1924.

SABBADIN FILIBERTO : FRATI MINORI LOMBARDI IN LIBIA La Missione di Tripoli 1908-1991 Edizioni Biblioteca Francescana Milano - 1991.

ZIOGADELL NICOLA : VOCABOLARIO DELLA LINGUA ITALLANA II Ristampa 77/87 - Zanichlli - Milano - 1970.

BERGNA COSTANZO : LA VECCHIA CATTEDRALE DI TRIPOLI Riv. Mens. Illustrata (LIBIA) N. 7/8 - Ottobre/ Novembre 1937 - Pag. 27.